أولاً- اللاوجود او العدم :

فكرة اللاوجود او العدم من الافكار المقترنة بالوجود والمكملة لفهمها في الفكر الفلسفي ، فهل العدم لا يعني شيئا على الإطلاق ؟ هل هو يعني شيء ما يجب تحديده ؟ هل هو موجود تماما كالوجود وأكثر منه ؟ هذه الأسئلة تحدد في الواقع ثلاث مواقف أساسية وقفها الفلاسفة حيال فكرة العدم .

الموقف الاول - ان العدم لا معنى له على الإطلاق :

أكد الفيلسوف اليوناني بارمنيدس ان الوجود كتلة متصلة لا فراغ فيها وغير متحركة لكمالها , فلا مكان فيها ابدا للعدم فضلا ان عقلنا لا يستطيع تصوره ، كذلك مذهب ديكارت العقلي يقوم على ما هو واضح ومتمايز من الافكار ليس في العالم الخارجي فراغ يشير الى العدم فكله امتداد هندسي واحد ، كما ان الشيطان الخبيث الذي افترضه في شكه المنهجي ليقوم بالخداع وباللاوجود فيثبت وينفي ، لا دور له في الحقيقة لان وجود الله الكامل الذي هو مصدر الحقائق والاشياء جميعا لا يترك امكاناً لمثل هذا الشيطان وعبثه .

ويرى الفيلسوف المعاصر هنري برجسون ان الوجود الممتليء ليس ساكنا وانما هو حياة وديمومة وامتلاء وتغير متصل لا فجوة فيه وتطور خلاق ، ومن ثم فلا مكان فيه للعدم وانما العدم فكرة من انتاج عقلنا هي فكرة زائفة جاءت من اننا نفكر في العالم ككل ثم نلغيه بواسطة النفي ، ففكرة العدم هي فكرة العالم يضاف اليها النفي الذي ادخله العقل . واكد برجسون من جهة اخرى ان الحكم المنفي لا يعبر عن اي عدم حقيقي وانما هو حكم تال

لحكم ايجابي غير منظور ، اذا هو حكم على حكم ، فأذا قلت هذا القلم ليس ابيض فأنت لا تعبر عن عدم حقيقي واقعي ، وانما انت ترد بحكم تال على حكم ايجابي اصيل وغير منظور يقول ان القلم ابيض .

الموقف الثاني - ان العدم شيء ما يجب تحديده :

ان مواقف الذين قالوا ان العدم شيء ما متعددة ،ويجب ان نحدد ما هو هذا الشيء الذي يعرف العدم ، فهرقليطس وديمقريطس والذريون القدماء الذين فتتوا الواحد البارمنيدي الى كثرة لا منتهية يفصل بينها الفراغ ، اكدوا في الوقت نفسه ان هذا الفراغ هو العدم ، وهكذا اثارت فكرة الوجود منذ بدايتها فكرة العدم بمعنى الفراغ والخلاء .

وذهب افلاطون الى معنى اخر للعدم هو ما يعنيه بكلمة الاخر ، بيّن ان كل حكم يشتمل على حد محدود من الوجود وعلى ما لا نهاية له من اللاوجود فعند قولك (س ابيض) و (س لا ابيض) لا يحصران التناقض الا في عالم الالوان ، بينما هما يتركان عوالم اخرى كثيرة لا نفكر فيها حاليا ، فبين ابيض ولا ابيض يوجد فراغ كبير تشغله ممكنات اخرى كثيرة توجد الهندسة وفلسطين والحرب والربيع ...الخ مما لا ينطبق عليه ابيض وليس ابيض ، وهذه العوالم تجمعها كلمة الاخر وهذا الاخر طبعا موجود ، لذلك فان العدم او اللاوجود الذي يعبر عنه الاخر هو موجود .

ويتفق ارسطو مع افلاطون في ان العدم وجودا ولكنه ليس الاخر ، فان الاخر يشمل امورا موجودة بالفعل ، لكن من الوجود ايضا ما هو بالقوة والعدم هو هذا الوجود الذي هو بالقوة ، ومن ثم العدم درجة من درجات الوجود الممكن ، فالعود من الخشب الذي سيصير قلما ليس قلما بعد ، هو "بالقوة " قلم او اي شيء اخر يصنع من الخشب ، ولولا هذا الامكان السابق على الوجود الفعلي لاي شيء لما امكن التحرك نحو الوجود بالفعل ، لذلك قبل ارسطو هيولى أولى لكل الممكنات وجعلها احد الجواهر الاربعة الهيولى أو المادة والصورة والموضوع المؤلف منها والعقل المفارق ، واذا اردنا ان ندفع الامور الى اقصاها – وهذا لم يقله ارسطو – فأن الهيولى الاولى وهي جوهر قد تصبح العدم في عمومه وهكذا فأن العدم هو الوجود الممكن او بالقوة .

وهيجل هو من أولئك الفلاسفة الذين اعطوا العدم حق الوجود ، فهو في أوائل كتابه في المنطق يدعونا الى ان نتأمل قليلا فكرة الوجود خالصة من اي شيء فسنرى انها تتحول الى فكرة العدم ، ونحن بعد ان علمنا أن هيجل لا يفرق بين الواقع والافكار نستطيع القول بأختفاء الواقع وقيام العدم بدلا عنه ، ومن ثم فالوجود والعدم يصطرعان في الفكر وفي الواقع وهذا الصراع هو وليد " النفي " ، نفي الوجود لذاته لكي يقيم عدما ، فالنفي اذن هو قوة خلاقة ومحركة لا مدمرة لانها تسمح للوجود بأن يتحرك ويقيم ما يناظره وهو العدم وهذه هي الخطوة الاولى فيما أسماه هيجل الجدل ، اما الخطوة الجدلية الثانية فهي أئتلاف المتصارعين المتناقضين : الوجود والعدم وأئتلافهما في وحدة أعلى منهما وأغزر كيانا

هي الصيرورة ودون متابعة هيجل الى ابعد من هذا يمكن القول بأن العدم في كيان الوجود هو انه يعني التغيير والحركة بدافع من النفي .

وهكذا نرى بعد هذا كله ان العدم قد حدد في اشياء مختلفة كالفراغ والاخر والقوة والتغير والحركة .

الموقف الثالث - العدم هو موجود تماما كالوجود :

العدم موجود تماما كالوجود بل هو اكثر منه حقيقة ، وهو موقف فلاسفة من متصوفي الالمان من امثال ايكهارت وبوهمه ، اللذين قالا بوجود اساس بعيد لكل شيء اعلى من الالوهة سماه ايكهارت الاب وسماه بوهمه الاساس ، وقال انه قاع مضطرم بالنار مظلم لا اخر لعمقه وهو العدم او اللاوجود .

ونجد اليوم عودة الى مثل هذه النظرية عند فيلسوف وجودي مؤمن معاصر عاش لاجئا في فرنسا وكتب بلغته الروسية وترجمة كتاباته ، هو نيقولا برديائيف ، الذي لم يجد تفسيرا للحرية عند الانسان ولا لوجود الشر في العالم الا بمثل هذا العدم الذي جعله في بمقام اله ودعاه((العدم الالهي)) ، فيقول ((العدم الالهي ... لا يمكن أن يكون خالق العالم وهذا ما وضحته الفلسفة الصوفية الالمانية ... من هذا العدم الالهي ولد الله الخالق ، وخلق الله الخالق للعالم عمل يأتي في المرحلة الثانية ومن ثم يمكن القول بان الله لم يخلق الحرية لان الحرية اصلها ضارب في ذلك العدم في ((الاساس)) منذ الازل ، فالحرية لا يحددها الله وهي جزء من العدم الذي خلق الله منه العالم . ان التعارض بين الله الخالق والحرية امر لاحق ، اما

الغيب الاول للعدم الالهي فهو فوق هذا التعارض لان الله والحرية ظهرا سوية من ذلك الاساس ، ومن ثم فان الله الخالق لا يمكن ان يكون مسئولا عن الحرية التي ادت الى الشر والانسان ابن الله وابن الحرية ابن العدم واللاوجود . الحرية العدمية قبلت من الله فعله الخلاق ، لذلك فأن اللاوجود قبل الوجود ، ولكن بسبب الحرية سقط الانسان ... ودخل الشر والالم الى العالم ، واختلط الوجود باللاوجود وتلك المأساة الحقة للعالم والله ، الله يشتاق الى ((الاخر)) ،الى رفيقة " يقصد الحرية" يريد منه الاستجابة لندائه ودخوله في الحياة الالهية ومشاركتها في عمله الخلاق لغزو اللاوجود . والله لا يجيب على نداء ذاته : اما الجواب فيكون من الحرية المستقلة عنه . الله الخالق قادر على الوجود ، على العالم المخلوق ، ولكنه لا قدرة له على اللاوجود ، على الحرية غير المخلوقة ... ان أسطورة سقوط الانسان تحكي عدم قدرة الخالق لتجنب الشر الناجم عن الحرية التي لم يخلقها هو ...))